عـــــبرة الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس فى تاريخ الاسلام كله صفحة أدعى إلى الشجن والأسى من تاريخ الأندلس ؛ فى الأندلس وحدها بادت أمة اسلامية عظيمة ، ومحيت حضارة اسلامية زاهرة ، ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال وذكريات دارسة . .

وقد زالت دولة الاسلام فى الأندلس ومحيت صفحته وأبيد أبناؤه منذ أربعة قرون ؛ وقام فوق الأرض شعب غير الشعب ، ودين غير الدين ، وحضارة غير الحضارة ؛ ولكن المأساة ما تزال حية فى صدر كل مسلم يستعرض هذه الصفحة ، وما زالت تثير فى النفس بالغ الحسرات

عاشت دولة الاسلام فى الأندلس زهاء ثمانية قرون ؛ ولم يكن غريباً أن تفيض فى هذا القطر النائى المنعزل عن باقى الأقطار الاسلامية ، بعد أن لبثت قروناً تمزق بعضها بعضا ، ولكن الغريب هو أنها استطاعت رغم جراحها الدامية أن تصمد للمدو الخالد المتربص بها مدى قرون

على أن تاريخ الأندلس نفسه يقدم الينا سر هذا الفناء البطىء الذى سرى إلى الدولة الاسلامية منذ قيامها ؛ وسنحاول أن نستعرض فى هذه اللمحة السريعة بعض العلل الجوهرية التى أصابت المجتمع الاسلامى فى الأندلس منذ تكوينه ، وغدت بمضى الزمن داء ذريعاً يقضم أسسه ويقوض دعائمه ، وما زالت به حتى استنفدت قواه وحملته إلى هاوية الانحلال والعدم

كان فتح العرب لاسبانيا فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . ومع أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد ودفع حدوده ، فانهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من الأمل والحياة . وقد قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، وتنفس الشعب نسيم الحرية ، وفرض المسلمون الضرائب بالمساواة والعدل بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر فقد كانت السياسة الاسلامية مثلاً أعلى للتسامح ، فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين والاعتقاد ؛ وكانت تأدية الجزية هى كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية شعائرهم ، ومن دخل الاسلام سقطت عنه الجزية وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات . وفى ذلك يقول العلامة دوزى : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الاسلامى مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتصفون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحدا فى شئون الدين . . . ولم يمنح النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج » ثم يقول دوزى عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا ؛ فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون . . »

غير أن هذه الدولة الجديدة التى بعثها الاسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف والخطر ، وكان هذا المجتمع الجديد ، الذى جمع الاسلام شمله ومزج بين عناصره يضطرم بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبغضون قادتهم ورؤساءهم من العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الأسبان ، — وهم المولدون أو البلديون — محدثون فى الاسلام يشعرون دائماً بأنهم رغم اسلامهم أحط من الوجهة الاجتماعية

من سادتهم العرب . ذلك أن العرب ، رغم كون الاسلام ، يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ؛ هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الانكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر مافى المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ؛ فقد كانت عصبية القبائل والبطون ما تزال حية فى الصدور ، وكان التنافس بين الزعماء والقادة يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع الى ما قبل الاسلام ، منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الاسلام فى حمير وتبّع أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً خشنين يخضعون لحمير ويؤدون لهم الجزية ؛ وكانت بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ؛ ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة أمثلة رائعة من هذا النضال . قال ابن خلدون « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشأم لغسان فى بنى جفنة ويثرب ، وكذلك فى الأوس والخزرج ، وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية ، وأحياء ناجمة ، وكانت فى بعضهم رياسة بدوية ، وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ؛ فاستحالت صبغة الملك اليهم ، وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الملك بالنبوة منهم ، فكانت فيهم الدول الاسلامية كلها إلا بعضاً من دولها ، قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة » . وهكذا أسفر النضال لظهور الاسلام عن تحول فى الرياسة ، وانقلبت الآية فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر تغار عليها ، وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها ؛ أضف الى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد فى الطبائع والخلال مما كان يذكى بينهما أسباب التنافس والتباعد ، وقد كان الاسلام مدى حين عاملاً قوياً فى جمع الكلمة ، ولكن العصر الأول ما كاد ينقضى حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها وعادت تعصف بوحدة المجتمع الاسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الاسلام بالسيف ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة التى تعمل تحت لوائه مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن ؛ وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الاسلامى المضطرم الذى قام باسبانيا

وكان البربر الذين اشتركوا فى فتح الأندلس واستعماره عنصراً خالداً فى إذكاء هذا الخلاف ؛ فكانت هذه المعركة المزدوجة : العرب فيما بين أنفسهم ، ثم العرب والبربر ، هى قوام المجتمع الأندلسى

* * *

كان هذا الخلاف المستعر يقضم أسس المجتمع الأندلسى الفتى ، ولم يمض على قيامه أربعون عاماً حتى تحولت الأندلس الى بركان مضطرم من الحروب الأهلية ؛ واستمرت هذه المعارك الداخلية زهاء قرن ونصف ، ولم يقف تيارها قيام دولة أموية جديدة ، ولم تتخللها فى ظل هذه الدولة سوى فترة يسيرة من السكينة والتوطد ، منذ الناصر الى المنصور . بيد أن خطراً جديداً كان يتربص بهذه الدولة الاسلامية التى يمزقها الخلاف الداخلى ، هو خطر المملكة النصرانية الاسبانية ، التى نشأت صغيرة متواضعة ونمت بسرعة مدهشة ، وأخذت تنافس المملكة الاسلامية ، وتتحين فرص الايقاع بها ، ولم تفطن الأندلس الى هذا الخطر الداهم ؛ وما كاد صرح الدولة الأموية ينهار ، حتى وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يقتسمونها ، وقامت دويلات الطوائف فى المقاطعات والمدن ، تنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل منها أن

تنتزع ما بيد الأخرى ، وألفى عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصته السانحة ، فأخذت تؤلب دويلات الطوائف بعضها على بعض ؛ وملوك الطوائف يرتمون فى أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفتهم على خصمه ومنافسه . وكادت الأندلس يومئذ تسير مسرعة إلى قدرها المحتوم ، وانتزع النصارى كثيراً من قواعدها وأراضيها ، لولا أن ظهر فى الميدان عامل جديد ، هو قيام الدولة المرابطية فيما وراء البحر ، ومقدم أميرها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على رأس جنوده البربر ، ملبياً داعى الغوث من جانب ملوك الطوائف ؛ فهنا استطاعت الدولة الاسلامية أن تنسى خلافها مدى لحظة ، وأن تلقى على النصرانيــة بمؤازرة المرابطين هزيمة حاسمة فى سهول الزلاقة ؛ ثم افتتح المرابطون الأندلس ، وأقاموا بها دولة جديدة ، ولـكن الصرح القوى الباذخ كان قد أخذ ينهار ؛ ولم يدم تماسك الدولة المرابطية طويلاً ، فقامت بالأندلس ملوك طوائف بربرية جديدة ، وعادت الأندلس تسير إلى فنائها ، وجاء الموحدون بعــد المرابطين ، فوصلوا دولة البربر بالأندلس مدى حين

ثم كانت دولة بنى الأحمر بغرناطة ، وكانت أندلس جديدة ، ولـكن صغيرة لا تعدو القطر الجنوبى المسمى بهذا الاسم ؛ وكانت اسبانيا النصرانية قد نمت واتسع نطاقها ، واستولت على قواعد الأندلس وثغوره العظيمة : قرطبة مهد الاســلام ، وطليطلة ، وأشبيلية ، ومرسية ، وبلنسية ، وسرقسطة وغيرها ، وسطعت فى مملـكة غرناطة ، مدى حين ، لمحة من عظمة الأندلس الذاهبة وحضارتها الزاهرة ، واجتمعت أشلاء الدولة الأندلسية العظيمة فى هذه المملـكة الصغيرة المتواضــعة ، وشغلت الممالك النصرانية الشماليــة مدى حين بخلافها الداخلى . ولـكن الأندلس كانت تشعر بمصيرها شعوراً قوياً ، واستطاع رجال مثــل ابن الخطيب وابن خلدون أن يستشفوا ببصرهم الثاقب ذلك المصير الروع الذى تسير اليه مملـكة غرناطة . ذلك أن نفس الخلاف الداخلى الذى قامت عليه الدولة الاســلامية منذ البداية ، واستمر يدفع الأندلس إلى مصيرها خــلال القرون ، كان يعصف أيضاً بهذه المملـكة الصغيرة ، ولم يمض بعيــد حتى أخذت تمزقها المعارك الداخليــة ، ويثب أمراؤها بعضهم ببعض ، ويستعدون خلال هذه المعركة الخطرة ، العدو الرابض المتربص بهم جميعاً

وكان مصرع الأندلس خلال إحدى هذه المعارك الداخلية ، وما زالت قصــة السلطان أبى الحسن ، وأخيه الزغل ، وابنه عبد الله أبى محمد ، وانشقاق المملـكة الصغيرة فى أدق ساعات الخطر إلى شطرين ، والتجاء أبى عبد الله إلى ملك النصارى لينصره على أبيه وعمه ، ثم انتهاز النصارى هذه الفرصــة لا يقاع ضربتهم الأخيرة بتلك المملـكة التى مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضها بعضاً ، وتلك الأمة المسلمة التى لم تعرف قط أن تواجه الخطر متحدة الـكلمة والقوى — ما زالت هذه كلها عبرة العبر ، وكان مصرع الأندلس هذه المرة يسيراً محققاً ، فسقطت قواعدها الباقية تباعاً فى يد النصارى ، وسلمت غرناطة أخيراً ، ووقعت النتيجة المحتومة ، وطويت صفحة الدولة الاسلامية فى الأندلس ، ولم يمض جيل أو اثنان حتى طويت صفحة الاسلام كله ، وكل آثاره وذكرياته من اسبانيا

وقد كانت مأساة الأندلس وما زالت عبرة بالغة ودرساً خالداً للعالم الاسلامى كله . ولـكن العالم الاسلامى لم يعتبر بهذه العبرة ، ولم يع هــذا الدرس ، وما زال التفرق يمزق أوصاله حتى التهم الغرب الجشع معظم أشلائه ، وأضحى الاســلام ذليلاً فى أرضه تخفق عليها أعلام النصرانية

فانى يسير الاسلام ؟ ومتى يدرك العالم الاسلامى قوة الاتحاد ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

ظهر حديثاً كتاب :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من ادارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع المبدولى — القاهرة

وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد